إبراهيم ناجى عاشق كل النساء
(١٨٩٩ م - ١٩٥٣ م)

أعطنى حريتى أطلق يَديًا إننى أعطيت ما استبقيت شيًا

هذا البيت من رائعته «الأطلال» إنما يعبر بصدق عن حياة الشاعر الرومانسى الرقيق المعطاء «إبراهيم ناجى»، فقد عاش عطاء كاملا للعلم والأدب والشعر والأصدقاء والفقراء ورجل الشارع، ولد غنيا ومات فقيرًا، ولكنه ترك تراثًا أثرى الحياة الأدبية المصرية، وأغنى الوجدان العربى.

ولد «إبراهيم ناجى» عند منتصف الليلة التى صافح فيها عام ١٨٩٨ عام ١٨٩٩، وسجل من مواليد ٣١ ديسمبر من عام ١٨٩٨، على أن غالبية المؤرخين يعتبرونه من مواليد عام ١٨٩٩، أما المكان الذى شهد ميلاده فهو حى شبرا بالقاهرة، وحتى نعرف كيف كان هذا الحى وقتذاك؟ لنقرأ ما كتبه عنه: «كنا نسكن فى شبرا، وكانت وقتئذ بساطًا أخضر شعريًا بديعًا، تتوسطه ساقية، وعلى ضفافيه أشجار جميز وتوت.. فكنت أمضى فى أحضان تلك المروج أتمتع بها، وأنهل من الجمال».

كانت البداية طيبة، طفل يولد فى أحضان الطبيعة الرائعة، وفى قصر فيه عربة وجياد وإمَاء وخدم وحشم، ومن أبوين فاضلين، الأب رجل عصامى مكافح، يعتنى بالثقافة أيما اعتناء، ويقرأ الأدب العربى

والأجنبـــى، بفضل حبه وتملكه من عدة لغـــات أجنبية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، والأم سيدة بسيطة، تسعدها النكتة وتحفظ كثيرًا مـــن الفكاهات، بالإضافة إلى كرمها وإنســـانيتها، ومـــما يروى عنها، أن طاهـــى البيت أصيب بداء الرئة، فاسْـــتَبْقَتْه فى البيت بقية حياته، وظلت تخدمه وتطعمه دون أن يعمل.

من الطبيعى أن ينشـــأ الطفل «إبراهيم ناجى» عاشـــقًا للقراءة، محبًا للطبيعة، كريمًا مع من حوله، معطاءً للجميع، مهتمًا بمشاكل الناس، يحكى لنا «ناجى» عن طفولته فيقول:

«ذات ليلـــة منذ ثلاثين عامًا سمعت أبى يقص على أمى قصة «أوليفر تويست»، لتشالز ديكنز، وما أزال أذكر تلك الليلة وهيهات أن أنساها، ومرت ليلة بعد ليلة، رأيت فيها أوليفر تويســـت هذا الطفل المعذب فى نومى، وطالما شـــكوت لأبى أن ثيابه الرثة تزعجنى فكان يضحك قائلا: «عندما تراه مرة ثانية استَوْقِفْه لتعطيه ثوبا مما لديك!».

فى سنة ١٩٠٤ التحق «إبراهيم» بمدرسة قريبة من بيته هى مدرسة «ســـبيل أم محمد علـــى» وكانت مثل دور الحضانة فـــى أيامنا هذه، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدرسة «باب الشعرية الابتدائية»، وفيها بدأ يتفوق علـــى زملائه ويقبل على العلم فى شـــغف ورغبـــة، وعندما حصل على الشـــهادة الابتدائية ســـأله أبوه عـــن الهدية التى يريدهـــا مكافأة على نجاحـــه، وعلـــى الفور طلب طفلنـــا النابه، كتابًـــا، وتهلل وجه الأب المثقـــف الذى يقدر الكتاب ويعـــرف أهميته، واصطحب ابنه إلى إحدى

مكتبات شبرا، واشترى له قصة «دافيد كوبر فيلد» تأليف «تشارلز ديكنز»، وأغرم «إبراهيم» بالقصة والكاتب، وقرأها عدة مرات، وكأنه يعد نفسه لمستقبل أدبى ممتاز.. والتحق بعد ذلك بالمدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا، وبدأت ميوله الأدبية تعبر عن نفسها، فحفظ ديوان «الشريف الرضى» من أوله إلى آخره، وبدأ ينشد الشعر وهو فى هذه السن الصغيرة، العاشرة تقريبًا، وبالطبع كانت البداية تقليدًا أو محاكاة لأشعار «الشريف الرضى» الذى أعجب به وحفظ ديوانه، واستعد «إبراهيم» للتخصص فى القسم الأدبى تلبية لدعوة مواهبه، ولكن القدر كان ينظم له شيئًا آخر، يقول «إبراهيم ناجى»:

«فى السنة التى قررت فيها أن التحق بالقسم الأدبى.. أرسل الله لنا معلمًا سوريا، لم يكد ينظر إلىَّ حتى توسم فِىَّ شيئًا لا أعلمه، جعله يؤمن بأننى قد أكون نابغة فى الرياضيات فوجه اهتمامه إلىَّ وكان قاسيا جدًا، إذ كان يضربنى ويشتمنى كغيرى من التلاميذ، وكان – رحمه الله – طيب القلب، يخفى وراء قسوته نفسًا من ذهب، فكان يلاحقنى بعد قسوته ويمد يده إلى بواجبات خاصة منه، ثم يعود فى اليوم التالى فيسألنى فى خشونة: هل عملت الواجبات؟ ولم أخيب ظنه مرة واحدة، وكان تقدمى سريعًا جعله يزهو بى ويفتخر، ثم أخذت قسوته تختفى وهو يأمرنى: قم يا «ناجى» اشرح لزملائك التمرين.. لقد كان تأثير هذا المعلم فى مستقبلى كبيرًا، فقد غيرت التحاقى بالقسم الأدبى، والتحقت بالقسم العلمى، ولتقدمى وتفوقى التحقت بكلية الطب..» .

مـع أنه تخصص فى العلـوم إلا أن هذا لم يمنعه مـن قراءة التراث والشـعر العربى والأدب الغربى ليشـبع نهمه منه فانكب على دواوين «أحمد شوقى»، «المتنبى»، «خليل مطران»، «ابن الرومى»، «أبى نواس»، «البـارودى»، وغيرهم، ودرس علم «العـروض والقوافى»، وفى الأدب الإنجليزى قرأ «شكسبير»، «شيلى»، «بيرون»، «كيتس»، «كوليريدج» وغيرهـم، وفى الأدب الفرنسـى أعجبه قصص رواد الرومانسـية مثل «موباسـان»، «فكتور هوجـو»، «لامارتـين»، «الفريد دى موسـييه» وغيرهم.

كان «إبراهيـم ناجى» يدرس الطب أكاديميا كطالب فى كلية الطب، ويقرأ الشـعر والأدب هوايةً كإنسـان موهوب، ومن الطبيعى أن تتفجر موهبته مبكرًا ويقرض الشعر ويكتب أجمل الأشعار.

تخرج «ناجى» فى مدرسـة الطـب العليا سـنة ١٩٢٢، وبدأ يعمل فـى مجال تخصصـه فى عدة محافظـات، ولم ينس هوايتـه وموهبته الشـعرية، فقد كان شاعرًا مطبوعًا، كما أجمع النقاد، وعلى حد قوله، كان يكتـب الأدب كأنـه علـم، ويـزاول الطب كأنه فـن. تمتع ناجى بعلاقات اجتماعية ناجحة مع جميع فئات الشـعب، فقد كانت روحه شـفافة تحب الجميع، وكان قلبه كبيرًا اتسـع للكل، الغنى والفقير، الوزيـر والغفير، العالم والجاهل، أما عطاؤه فـكان بلا حدود، كانت عيادته تكتظ بالمرضى الفقراء الذين يعالجهم مجانًا، لا بالكشف عليهم وتحديد مرضهم وكتابة العلاج فى الروشـتة وحسب، بل بشراء الدواء

لهم أيضًا، كان كطبيب يعالج آهات الجسد وأمراضه، وكشاعر ينصت إلى أنات الروح وعذابها، ومن الصعب الفصل بين الشاعر والطبيب، ذلك لأنه كان إنسانًا كبيرًا، يهتم بكل إنسان، ويعتبره شغله الشاغل.

بعد تخرجه من مدرسة الطب انتقل «إبراهيم ناجى» من القاهرة إلى سوهاج، ثم إلى المنيا، ثم إلى المنصورة ليمارس عمله كطبيب. المنصورة من المدن التى تبنت المواهب وقدمت لمصر الكثير من العبقريات مثل «أحمد لطفى السيد» أستاذ الأجيال، وسيدة الغناء العربى «أم كلثوم»، ويحكى لنا الشاعر الكبير «صالح جودت» قصة لقائه «بإبراهيم ناجى» فى كتابه «بلابل من الشرق» فيقول:

فى المنصورة عرفت الشاعر «إبراهيم ناجى»، إذ كنت يومئذ طالبًا بالمدرسة الثانوية، وكان لى زميل أثير هو الشاعر «م. ع. الهمشرى»، وقد كان شاعرًا موهوبًا مأمولا لمستقبل ضخم، لولا أن عاجلته المنية وهو فى أوج الشباب، كنا نخرج أنا والهمشرى من المدرسة، فنلتقى بشاعرين يكبراننا، وكان المستقبل يتهيأ لهما يومئذ، هما «إبراهيم ناجى» الطبيب، و «على محمود طه» المهندس، فكنا نجلس نحن الأربعة على شاطئ النيل، نقضى أجمل ليالى العمر فى حديث الأدب والشعر والجمال. وفى المنصورة نظم «ناجى» قصيدة: «صخرة الملتقى» وبعث بها إلى مجلة «السياسة الأسبوعية» وهى يومئذ أعظم صحيفة أسبوعية أدبية، فاحتفت بها الصحيفة ونشرتها فى مكان كريم. وبدأنا نفعل ما فعل «ناجى»، بعد أن كنا نشفق من إرسال شعرنا إلى الصحف مخافة الإهمال، فأرسلناه وبدأنا نأخذ طريقنا إلى الناس.. وانتهت أيام

المنصـورة الحلوة، وزحفنا نحن الأربعة علـى القاهرة فى وقت واحد. «ناجى» إلى وظيفته بالقسم الطبى بمصلحة السكك الحديدية، والمهندس إلى وظيفته بوزارة الأشغال، والهمشرى إلى كلية الآداب، وأنا إلى كلية التجـارة؛ ومنـذ ذلك الحين لم نفترق – أنا وناجـى – إلى أن لقى وجه ربه، إلا ليالى معدودات.

بعـد عودة ناجى إلى القاهرة ذهب لزيارة ديار أحبابه الذين تغيرت مقاديرهم رآها أطلالا خربة، فنظم قصيدة «العودة» التى يقول فيها:

هـذه الكعبـة كنـا طائفيهـا والمصليـن صباحـا ومسـاء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غربـاء ؟
دار أحلامـى وحبـى، لقيتنـا فى جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهـى كانت إن رأتنـا يضحك النـور إلينـا من بعيـد

رحبت الحيـاة الأدبية بشـاعرنا «إبراهيم ناجى» بعـد عودته من المنصورة وانتشـار شـعره، وتقربه من أمير الشـعراء «أحمد شوقى»، وعندمـا قامت جمعية «أبولّو» فى سـنة ١٩٣٢، انضم إليها شـاعرنا، كان رئيسها أمير الشعراء «أحمد شوقى»، وأمينها العام الدكتور «أحمد زكى أبو شـادى»، وأعضـاء مجلس إدارتها «على محمـود طه»، «زكى مبارك»، «الصيرفى»، «الهمشرى»، «صالح جودت»، «مختار الوكيل»، وقد اختاروا جميعا «إبراهيم ناجى» وكيلاً للجمعية.

خـلال حياته لم يصدر «ناجى» غير ديوانين فقط، وصدرت الدواوين الأخـرى بعد رحيلـه، لكن إنتاجـه الأدبى والفكـرى لم يقتصر على

الشعر وحسب، إنما ترجم عن الإنجليزية رواية: «الجريمة والعقاب» لديستوفسكى، كما ترجم عن اللغة الإيطالية «الموت فى أجازة»، ونشر كذلك دراسة عن «وليم شكسبير»، ولم ينس أنه طبيب فأصدر مجلته المعروفة والقيمة «حكيم البيت»، بالإضافة إلى كتاب «مدينة الأحلام» فى مجال الشعر صدر للشاعر «إبرهيم ناجى» خمسة دواوين هى:

الأول ديوان «وراء الغمام» صدر فى شهر مايو سنة ١٩٣٤، ويضم أربعًا وخمسين قصيدة.

الديوان الثانى «ليالى القاهرة» صدر فى سنة ١٩٥٠ ويضم أربعا وسبعين قصيدة.

الديوان الثالث «الطائر الجريح» صدر فى سنة ١٩٥٧ بعد الرحيل، ويضم ستا وخمسين قصيدة.

الديوان الرابع «قصائد من ديوان ناجى» صدر سنة ١٩٦١، يضم اثنتين وثلاثين قصيدة.

الديوان الخامس «قصائد مجهولة» صدر سنة ١٩٧٨، يضم مائة قصيدة وقصيدة.

ويحسب للشاعر الباحث الأديب حسن توفيق الجهد الكبير فى البحث عن قصائد «إبراهيم ناجى» المجهولة وجمعها فى الديوان الخامس، وبخاصة أنها مائة قصيدة، وهو عدد غير قليل إذا عرفنا أن قصائد «إبراهيم ناجى» كلها ٣١٧ قصيدة.

كتب «ناجى» فى كل ألوان الشعر، الوطنى، العاطفى، الوصفى، المديح، الهجاء، الرثاء، بل وكتب الشعر الحلمنتيشى الذى يقوم على

نقد المجتمع بطريقة فكاهية، ولمَ لا يكتب «إبراهيم ناجى» فى شتى ألوان الشعر وهو الشاعر المطبوع الذى يتنفس شعرًا؟ وهو القائل فى مقدمة ديوانه الثانى «ليالى القاهرة»:

«الشعر عندى هو النافذة التى أطل منها على الحياة، وأشرف منها على الأبد. وما وراء الأبد.. هو الهواء الذى أتنفسه.. وهو البلسم داويت به جراح نفسى.. هذا هو شعرى..».

اهتم «ناجى» فى شعره بالمرأة اهتمامًا كبيرًا ملحوظًا حتى قال عنه الأديب «نعمان عاشور»:

«كان «ناجى» كلما رأى امرأة وقع فى حبها.. فالحب عنده كما كان يقول المرحوم «كامل الشناوى» مثل :قزقزة اللب: و «كامل» نفسه كان كذلك!». كما قالت عنه الدكتورة «نعمات أحمد فؤاد»: «إبراهيم ناجى» ليس من الموحدين فى الحب..».

وعن الحب يقول «ناجى»:

ذلك الحب الذى علمَنى أن أحب الناس والدنيا جميعا.

كانت هناك صولات وجولات «لناجى» مع المرأة تجلت فى قصائد عديدة مع عدد من الفنانات والكاتبات منهن على سبيل المثال: «أمينة رزق»، «شهر زاد»، «سامية جمال»، «أمانى فريد»، «زوزو نبيل»، «زوزو ماضى»، «زوزو حمدى كامل» وغيرهن.. أحب «ناجى» المرأة واحترم دورها فى الحياة، وأشفق عليها حتى من قيود حبه لها وفى هذا قال:

لـم أقيدك بشيء مـن الهـوى أنت حبى ومن وجدى طليق
الهـوى الخالص قيـد وحـده رب حر هـو فـى قيـد وثيـق

الواقــع أن «ناجى» أحب رمز المرأة، وهــام بها، فهى مصدر الحب والحنان، وكل المشاعر النبيلة الجميلة، ومع ذلك كانت له - كما يقول «حسن توفيق: - حبيبة واحدة هى التى ألهمته روائع عديدة من بينها رائعتــه «الأطلال» التى تغنت «أم كلثوم» ببعض مقاطعها، بل وأضافت إليها من قصيدة أخرى «لناجى» أيضا، وســنتحدث عن ذلك فيما بعد، كانــت هذه الحبيبة إحدى قريبات «ناجــى»، كان يرمز إليها بحرفى «ع. م» وقــد أهدى إليها ديوانه الثانى: «ليالى القاهرة»، إنها الســيدة «عنايات محمود الطوير» المثال الذى عاش «ناجى» يناجيه طيلة حياته فى معظم أعماله.

يذكر «نعمان عاشور» فى كتابه «مع الرواد» أن الأديب «زكى مبارك» كان يعيــب على «إبراهيم ناجى» أنه لا يشــرب الخمــر ومع ذلك فإن معظم قصائده لا تخلو من التشبث بأجواء السكارى ونشوة المخمورين، ورد «ناجــى» أن خمــر حياته هــو حبه لأن الحب هو عصــارة قلبية، وما الخمر إلا عصارة من العصارات، ويســتكمل «نعمان عاشور» قائلا: وطــال بنا الليــل، فأغلقت المقهــى التى كنا نجلس فيهــا علينا ونحن جلــوس داخلها، وبدأ «زكــى مبارك» يتحرش «بناجى» فى الشــعر.. فطالبه لمطارحته على أن يقول كل منهما بيتا فيسارع الآخر بالرد عليه من آخر حرف فى آخر كلمة فيه.. وبشرط أن يكون من تأليفه على غير العادة فى مطارحات الشــعر.. وبدأ «زكى مبارك» بيتا من شعره.. فرد

عليه «ناجى» ببيت آخر ارتجله مباشرة. واستمرت المطارحة.. كان «زكى مبارك» يستحضر أبياتا من شعره المكتوب. بينما «ناجى» يرتجل الأبيات عفو الخاطر وفى بداهة لا تعرف التوقف و «زكى مبارك» نفسه لا يصدق ويتهمه بأن ما يقوله من أبيات إنما هو من محفوظ أشعاره.. كان تحديا مثيرًا رد عليه «ناجى».. بأن كان يقابل كل بيت يقوله «زكى مبارك» بعدة أبيات متلاحقة على صورة رد فى المعنى والفكرة والمضمون.. شىء أشبه بالقصائد القصيرة..

ثم يعلق «نعمان عاشور» على ذلك قائلا:

«وتلك كانت حقيقة شاعرية «ناجى».. فهو يقول الشعر على سجيته ويرتجله ارتجالا فوريا.. موهبة فذة لا يضارعها إلا عجزه عن حفظ أكثر من بيت أو بيتين من أى قصيدة سبق أن كتبها..».

صدر «لإبراهيم ناجى» ديوانه الأول «وراء الغمام» سنة ١٩٣٤ وكان يتوقع أن يسهم هذا الديوان فى زيادة شهرته وتقديمه إلى القراء بطريقة جميلة، لكن الذى حدث هو العكس صحيح فقد انبرى الدكتور «طه حسين»، والأستاذ «العقاد» فى الهجوم على الديوان وصاحبه، فكتب «طه حسين» فى جريدة الوادى – يونيو سنة ١٩٣٤، ينقد الديوان، بل يتساءل عن معنى العنوان «وراء الغمام» ثم يقول»

«إن صاحب «وراء الغمام» من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن نستمتع بما فى شعرهم من الجمال الفنى، كما نستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة، دون أن نثبط عليها بالتقليب والتعذيب، هو شاعر هين، لين،

رقيق، حلو الصوت، عذب النفس، خفيف الروح، قوى الجناح، ولكن إلى حد لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة، ولا أن يرتفع فى الجو ارتفاعًا بعيد المدى، وإنما قصاراه أن ينتقل فى هذه الرياض التى تنبت فى المدينة أو حولها، والتى لا تكاد تبعد عنها كثيرا، وهو إذا ألمَّ بحديقة من الحدائق وجنة من الجنات لا يحب أن يقع على أشجارها الضخمة الشامخة فى السماء، وإنما يحب أن يقع على أشجارها المعتدلة الهينة.. هو شاعر حب رقيق، ولكنه ليس مسرفًا فى العمق، شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الحجرة منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب..».

ويشرح لنا «صالح جودت» معنى الغمام فيقول:

«الغمام.. الذى يتطلع «ناجى» إلى الأرض فيراه: يحجب حقائق الناس، فتلك راقصة تلهو وتمرح وكأنها أسعد أهل الأرض فإذا انقشع عنها الغمام، تجلت وراءه مأساة دامية، يصورها لنا فى قصيدته «قلب راقصة» ويقول فيها:

لا تكتمى فى الصدر أسرارًا ... وتحدثى كيف الأسى شاءَا
أنا لا أرى رجسا ولا عارا ... لكن أرى امرأة وبأساءَا

الغمام.. الذى يصعد «ناجى» بعينه إلى السماء، فيراه يحجب حقائق السماء، فيسمو إليها بخياله فى قصيدته «صلاة الحب»:

سموت ودق إحساسى ... وجزت عوالم البشر
نسيت إساءة الناس ... غفرت خطيئة القدر

أما «عباس العقاد» فكان هجومه على «ناجى» أشد ضراوة وقسوه، فقد كتب فى جريدة الجهاد يونيو سنة ١٩٣٤ نقدًا اتهم فيه «ناجى» بسرقة أبيات من شعره هو وضمنها قصائده بعد تحويرها، وقال «العقاد» فى نقده:

«أظهر ما يظهر من سمات هذه المجموعة الضعف المريض والتصنع، فإن صاحبها كما يدل عليه كلامه من أولئك النوع الذين يفهمون أن «الرقة» ترادف البكاء، وأن الشاعر ينظم ليبكى ويشكو فإذا هجره الحبيب بكى وإذا تناجى مع حبيبته قال لها: «هاتى حديث السقم والوصب» إلى نحو ذلك من أغراض الرخاوة المريضة التى لا نزال نحاربها منذ عشرين سنة فى الشعر والنثر والغناء».

معركة أدبية كبيرة فجرها ديوان ناجى الأول، اشترك فيها كبار الأدباء وشبابهم، وبخاصة أتباع جماعة أبولو دفاعًا عن زميلهم وعضو الجماعة «إبراهيم ناجى»، الطريف أن هذه المعركة قامت واشتعلت وصاحبها أو مسببها «إبراهيم ناجى» فى أوروبا بين فرنسا ولندن، وعرف بها من خلال قراءته صحف القاهرة، فحزن حزنًا شديدًا وهزه جحود الأصدقاء الذين هاجموه فى غيبته فوجد نفسه يردد هذا البيت:

هى محنة وزمان ضيق وتمخضت عن لا صديق

لم يستطع ناجى أن يتخلص من حزنه وهمه الذى سببهما نقد أصدقائه له وهجومهم عليه، وبخاصة أنه إنسان حساس ذو نفس

رقيقة، وبينما هو يسير فى شوارع لندن مهموما قلقا إذ بسيارة تدهمه تدخل عظمة ساقه فى الحوض فتكسره، ويزداد الألم والجرح بفضل مرض السكر الذى كان يعانى منه مع شدة برد لندن، وبدلا من أن يتمتع «ناجى» بمدينة لندن كسائح شرقى يتطلع لمشاهدة أوروبا، يقضى أشهرًا فى مستشفى سان جورج تحت العلاج وإجراء العمليات، ثم يخرج منه وهو غير معافى تماما، بل يحمل ساقيه على عكازين، وفى عودته إلى مصر انفعل كعادته بمجرد أن شاهد من الباخرة شاطئ مصر فصاح قائلا:

هتفت وقد بدت مصر لعينى رفاقى تلك مصر يا رفاقى
خرجت من البلاد أجر سقمى وعدت إلى البلاد أجر ساقى
أتدفعنى وقد هاضت جناحى وتجذبنى وقد شدت وثاقى؟

لم ينس «إبراهيم ناجى» من نقدوه وهاجموه، وأعلن أنه سيترك الشعر ويهجر الأدب، وأصدر سنة ١٩٣٥ كتابه «مدينة الأحلام» وقال فى مقدمته:

«بالأمس أخرج الشاعر ديوانه، واليوم قد أخرج القاص ما لديه من قصص، وأفضى المفكر بما أنتج فكره، وغدًا ينطوى الشاعر وينسى القاص ويتلاشى الفكر، غدا فراغًا، غدًا يمشى الطبيب إلى قبر الأديب الذى كان ذات يوم هو نفسه وقد حمل فى يده زهورًا، فيضعها عليه دامع العين.. وداعًا أيها الشعر.. وداعًا أيها الفن.. وداعًا أيها الفكر.. وداعًا ودمعة مُرة وابتسامة أَمَرّ!..».

حـــزن «الدكتور طه حســين» من موقف «إبراهيــم ناجى» وميله إلى العزلة والابتعاد عن الشــعر، ويبدو أن قســوته فى نقد «ناجى» كانت تهدف إلى التشــجيع والتجويد، ومن ثم كتب مقالا فى صحيفة الوادى قال فيه:

«إنـــى لم أحزن حين رأيت الدكتور «ناجى» يعلن زهده فى الشــعر، لأنى قدرت أن الدكتور «ناجى» إن كان شــاعرًا حقا، فسيعود إلى الشعر إن راضيًا وإن كارها، سواء ألححت عليه فى النقد أم رفقت به، وإن لم يكن شــاعرًا فليس على الشــعر بأس فى أن ينصرف عنه أو يزهد فيه، فإنى أرى فيه اســتعدادًا لا بأس به، وإن عُنِىَ بشعره واستكمل أدوات هذا الفن فخليق به أن يبلغ منه شيئًا حسنا».

عاد «إبراهيم ناجى» لفنه وشــعره بعد أن أثلــج صدره ما كتبه «طه حسين» ليشجعه على العودة والاستمرار، واستمر بعد ذلك نحو عشرين عاما تقريبا يبدع ويقدم لنا روائعه.

يكتب «ناجى» فى ديوانه الأول قصيدة من شــعر الصبا تحت عنوان «كلانا» يقول فيها:

كلانـا عليـل فـلا تجزعـى ودمعــك تســبقه أدمعـــى
وإن كان بين ضلوعـك نـارُ فنار الصـبابة فـى أضلعـى
وإن كان نجمُ هنائِك غابَ فنجــمُ هنائـــى لـم يطلــع

وفى نفس الديوان الأول «وراء الغمام» يكتب قَصيدة طويلة – ٣٤ بيتا – فى يوم الشباب يقول فى مطلعها:

اليـوم يومك فى الشباب فنادِ لا نـومَ بعـدُ ولا شهـى رقـادِ
قل للذى يبغى الصلاحَ لقومـه بنبيل صنع أو شريف جهـادِ
بالطـب أو بالشعر أو بكليهما كلُ الجهود فداءُ هـذا الوادى
لا خير فى قلم إذا هو لم يكن حُرا طهورًا كالشعاع الهـادى
لا خير فى طب إذا هو لم ينر ظلـم الحيـاة كفرحـةِ الأعيـادِ

من أشهر قصائد «ناجى» قصيدة «الأطلال» التى ساهمت سيدة الغناء العربى «أم كلثوم» فى شهرتها، بل وفى شهرة الشاعر «إبراهيم ناجى» نفسـه بين العامة من الناس، بعـد أن تغنت ببعض أبياتها، ويبدو أن الشـاعر كان يحب كلمة أطلال، أو كانـت لديه أطلال كثيرة، ومن هنا حفلت قصائده بالكلمة، فهناك قصيدة الأطلال الشهيرة، وهناك قصيدة أخـرى بعنوان «أطلال»، وقصيدة ثالثة بعنوان «الأطلال الضائعة».. أما قصيدة «الأطلال» التى تغنـت بها «أم كلثوم» فهى ضمن قصائد الديوان الثانـى للشـاعر، وتتكون مـن ١٣٤ بيتا، وهى قصة حـب ضائع بين حبيبـين التقيا وتحابـا ثم انتهت القصة بأن صـارت المحبوبة أطلال جسـدٍ، وصار المحب أطلال روح، والأبيات التى تتغنى بها «أم كلثوم» ليسـت كلها من أبيات قصيدة الأطلال، وإنما أخـذت «أم كلثوم» أبياتًا أخرى من قصيدة «الوداع» التى يضمها الديوان الأول «لناجى» وأضافتها إلى القصيدة المغناة، وهذه هى الأبيات المضافة:

هـل رأى الحب سكارى مثلنا؟! كـم بنينـا مـن خيـال حولنـا
ومشـينا فـى طريـق مقمـر تثـب الفرحـةُ فيـه قبلنـا

وضحكنا ضحك طفلين معا   وعدونا فسبقنا ظلنا

•••

وانتبهنا بعد ما زال الرحيق   وأفقنا ليت أنا لا نفيق
يقظة طاحت بأحلام الكَرَى   وتولى الليل، والليل صديق
وإذا النورُ نذيرُ طالعُ   وإذا الفجر مُطِلُ كالحريقْ
وإذا الدنيا كما نعرفها   وإذا الأحبابُ كلٍّ فى طريق

هذه هى الأبيات السبعة من قصيدة «الوداع» المضافة إلى بعض أبيات قصيدة «الأطلال» المغناة، بعدها تعود «أم كلثوم» إلى البيت رقم ٩٥ فى قصيدة «الأطلال» لتغنى الثلاثة الأبيات التالية:

أيها الشاعر تغفو   تذكر العهد وتصحو
وإذا ما التأم جُرحُ   جَدَّ بالتذكار جرحُ
فتعلم كيف تنسى   وتعلم كيف تمحو

•••

ثم تتغنى «أم كلثوم» بالأبيات ١١٥ إلى ١١٨ والتى تقول»

يا حبيبى كل شىء بقضاء   ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا   ذات يوم بعد ما عز اللقاء
فإذا أنكر خلٌ خله   وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته   لا تقل شئنا وقل لى الحظ شاء

والملاحظ أن «أم كلثوم» مع الملحن غيرت بعض الكلمات حتى يسهل التلحين والإلقاء مثل:

البيت رقم ٩٥ أيها الشاعر تغفو، تغيرت كلمة الشاعر بالساهر، فى البيت رقم ١١٨ عبارة لا تقل شئنا وقل لى الحظ شاء تغيرت إلى.. لا تقل شئنا فإن الحظ شاء.

وهـذه القصيدة بالذات وما حدث لها من إضافة لم يشـعر المسـتمع بغرابتها، بل شـعر أن القصيدة المغنـاة كأنها قصيدة واحدة، إنما يدل هذا على قوة شـعر «ناجى» وبسـاطته وارتباطه ببعضه، ومدرسته فى السـهل الممتنـع ووحدة الـروح، وتآلف النغمة أو اللحـن، ولهذا قال «أحمـد الصاوى محمـد» فى مقدمة ديوان «وراء الغمـام» الديوان الأول «لإبراهيم ناجى»:

«يكاد يكون ديوان «ناجى» قصيدة واحدة وقصيدة حب».

من القصائد التى تغنت بها «أم كلثوم» «لإبراهيم ناجى» أيضًا قصيدة وطنيـه هى «مصر» التى ضمها ديوانه التالى «ليالى القاهرة» والتى يقول فيها:

أجـل إن ذا يـوم لمـن يفتـدى مصـرَ
فمصر هى المحراب والجنةُ الكبـرى
حلفنا نولى وجهَنـا شـطرَ حبهـا
وننفذ فيـه الصـبرَ والجهـدَ والعمراَ
نبـث بهـا روحَ الحيـاةَ قويـةً
ونقتل فيها الضنك والـذل والفقـرا
نحطـم أغـلالا ونمحـو حوائـلَ
ونخلـق فيهـا الفكـر والعَمـلَ الحُرا

كلمات تفيض حبا وعشقا للوطن، وتدفع إلى العمل من أجله.

عـاش «إبراهيم ناجـى» قصة حب للجميع، يعـالج المرضى مجانًا، يحث الشـباب على العمل وحب الوطن، يسمو بالروح وينشر الجمال، يسـهر الليل ولا ينام إلا مع شـروق الشمس، حول عيادته فى شبرا إلى صالـون أدبى علمى يجتمع فيه مع أصدقائـه وتلاميذه، عاش عطاء بلا حدود، وحبا من القلب، ولد غنيا ومات فقيرا، عالج المرضى وهو المريض بالسـكر وداء الرئة، طرد من وظيفته وهو فى الخامسـة والخمسين من عمره فى حركة التطهير، وهو الطبيب الطاهر الذى يبذل نفسه من أجل مرضاه، والشاعر المرهف الحس الذى يدعو إلى حب الوطن وتقدمه، وإلى كل القيم النبيلة.. الخير والحق والجمال والحرية والمساواة والتواضع.. «إبراهيـم ناجى» قصيدة حب خالدة فى تاريخ الأدب المصرى، مات فى ٢٤ مارس سنة ١٩٥٣ وهو فى الخامسة والخمسين من عمره.